

كتابان عربيّان في التاريخ للمسيحية (أبو زهرة وشلبي)

قراءة محمد أمين فرشوخ

من الكتب التي لاقت رواجاً بين دارسي المسيحية وعلاقاتها بالإسلام في بلادنا، خاصة بين طلبة الأزهر منذ 1945، كتاب الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة: «محاضرات في النصرانية»⁽¹⁾، والذي فصل عنوانه الرئيسي بما يلي: «محاضرات تبحث في الأدوار التي مرّت بها عقائد النصارى في كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم». وقد طبع الكتاب مرات عديدة، وانتشر في مصر والعالم الإسلامي. وفي إهدائه يقول الشيخ أبو زهرة: «وإني لأهدي كتابي هذا إلى كل مسيحي طالب للحقيقة يسير في مسالكها لا أبغي به غلباً في جدال، ولا سبقاً في نزال، ولكنني أبغي به الحق المجرد: «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله».

فهل استطاع مؤلف الكتاب، فعلاً، أن يرتدي رداء الباحث المنصف، وينظر نظر غير المتحيّز كما أشار في مقدّمته للطبعة الأولى، أم كان يشرح ويحلّل عن هوى، أو قلّ يتحرّى المسيحية من منظار الإسلام، مسلماً بالنتيجة قبل تقليب النظر وإعمال البصر؟ إذ إنه «عسير على المرء أن يكتب في رأي يخالف رأيه» كما أضاف الشيخ أبو زهرة في تمهيده لكتابه.

(1) محاضرات في النصرانية، ألّفها الشيخ محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي، مطبعة أحمد علي مخيمر، القاهرة. (322 صفحة).

وهناك كتابٌ آخرُ في الباب نفسه، للدكتور أحمد شلبي، أصدره ضمن سلسلة: «مقارنة الأديان» بعنوان: المسيحية⁽¹⁾، وصلَّتنا طبعته السادسة لعام 1978، مما يؤكد انتشاره وشدة الإقبال عليه. والدكتور شلبي في تقديمه للكتاب يحاول أن يجسّد دور العالم «المستقيم لا العاطفي»، والحامل لراية الهداية للجميع، حين يقول: «فهذا الكتاب هو أهم وسائلتي... إنه القربى التي أمسكها بإحدى يديّ وأمسك كتاب «الإسلام» باليد الأخرى وألّوَح بهما في شكر وتواضع، ذاكرًا أنهما ساعدا على تقديم الهداية لملايين البشر».

وفي كتاب الدكتور شلبي معالجة لمعتقدات المسيحيين، ودراسة مقارنة مدعومة بالأسانيد، من غير أن يتخلّى الكاتب، أحياناً، عن تعليق شخصي، أو موقف ذاتي، حين يقول مثلاً عن سلطة المجامع المقدّسة: «يا لله من ظلم الإنسان وجهله... (ص 154)»، أو حين يتحدث عن ألوهية المسيح فيقول: «وهذا الخيال المريض للمسيحيين... (ص 166)».

فماذا قال هذان الكتابان في المسيحية في النطاق الخَبَري والجدالي؟

يعرض المؤلفان في الأبواب الأولى في كتابيهما للمسيحية في نظر المسلمين، وفي نظر اليهودية، ويُقرّان بأن الإسلام قد أنصف عيسى ورسالته، أما اليهود فإنّهم أوجزوا، للغاية، الحديث عن عيسى وهو عندهم - إن صح وجوده - رجل عادي كفر بدعوتهم فقتلوه. أما كلمة «المسيح» فقد وردت في التوراة، ولا يزال اليهود ينتظرونه، ويرونه ملكاً عظيماً سيأتي ليجعل لهم سلطاناً على الأرض.

وفي هذا المبحث - بعد عرض حياة عيسى ووالدته كما يرد في القرآن وفي الأناجيل - يتركز الحديث حول موت عيسى ورفع، وهنا يُذكر أن بعض العلماء المسلمين يعتقدون بأنّ عيسى رُفِع إلى السماء بجسمه وروحه استناداً لقوله تعالى:

(1) «مقارنة الأديان» - 2 - المسيحية، تأليف د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة. (303 صفحات).

﴿وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه﴾ (سورة النساء: الآية 158)، و﴿إني متوفيك ورافعك إلي﴾ (سورة آل عمران: الآية 55)، بينما يرى آخرون أن (الرفع) هو رفع المكانة استناداً إلى آيات قرآنية كثيرة، فيكون الجسد، إذًا، قد وُوري التراب، بينما الروح يكرّمها الله بقربه فتستمتع استمتاعاً غير جسماني.

فالموت أكيد لكل ذي جسم، بل إن جمهور المفكرين المسلمين يرى أن عيسى قد نجا من اليهود وعاش زمناً حتى استوفى أجله، ثم مات ميتة عادية وُرفت روحه إلى السماء مع أرواح النبيين والصدّيقين والشهداء. وعلى كل حال فنزول عيسى، آخر الزمان، ليس معناه أنه تم رفع روحه وجسمه معاً، وقوله تعالى حكايةً عن عيسى: ﴿والسلام عليّ يوم ولدْتُ ويوم أموت ويوم أُبعث حيّاً﴾ (سورة مريم: الآية 33)، واضحٌ ليؤكد أن عيسى مثل كل البشر: يولد ويموت ويبعث، وكل ما يخالف ذلك يحتمل اللفظ فوق ما يحتمل.

وهنا يشير د. شلبي إلى أن السيد محمد رشيد رضا أضاف إلى دراسة له في هذا الموضوع قائلاً: إن مسألة رفع الجسم والروح هي عقيدة النصارى، وقد استطاعوا بحيلة أو بأخرى دفعها تجاه الفكر الإسلامي (تفسير المنار، ج 10 من المجلد الثاني والعشرين)، ويؤكد ذلك الشيخ أبو زهرة بقوله: إن أحاديث الرفع التي يتناقلها المسلمون ليست متواترة، ولم تشتهر إلا بعد القرون الثلاثة الأولى للميلاد، ويضيف: «إذا اعتقد البعض أن النصوص تفيد هذا وترجحها فله أن يعتقد في ذات نفسه ولكن له أن يلتزم ولا يلزم».

أمّا عن رسولية عيسى، فقد فصل المؤلفان في ذلك متحدثين عن اعتقاد المسلمين بأن المسيحية دين توحيد مطلق، وأن عيسى هو رسول الله ليس غير، ويضيفان بأن الكتب المسيحية تشير أيضاً إلى ذلك: ففي إنجيل لوقا (12: 28 - 36): «... أية وصية هي أول الكل؟ فأجاب عيسى: إنّ أول الوصايا هي: إسمع يا إسرائيل الرب إلّهُنا رب واحد... فقال له الكاتب: جيداً يا معلم بالحق قلت. لأن الله واحد وليس آخر سواه».

وعيسى هو نبي إلى بني إسرائيل خاصة، استناداً لقوله تعالى: ﴿ورسولاً إلى

بني إسرائيل ﴿ (سورة آل عمران: الآية 49)، وكما في الإنجيل: «... لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشليم» (لوقا 13: 33 - 34)، و«لم أُرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة» (متى 21: 15 - 24)، وكما تأكد ذلك «أعمال الرسل» حين تدل على تمسك الحواريين بعد عيسى بأن المسيحية دين لبني إسرائيل خاصة (أعمال الرسل، الفقرة الأولى).

ويشير د. شلبي بأن طابع المسيحية عند المسلمين هو الزهد والرضا بالضميم. وهو نفسه عند المسيحيين حين دعا عيسى إلى ملكوت السماء المفتوح لجميع الصالحين (متى 5: 45)، وفي هذا ضربة للولاء العائلي عند بني إسرائيل، ومعارضة واضحة لدعوى اليهود بالاصطفاء والامتياز.

ويضيف د. شلبي: إن المسلمين يعتقدون بأن عيسى بشر بنبوة محمد، استناداً لقوله تعالى: ﴿ومبشراً يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ (سورة الصف: الآية 6)، ولقول الإنجيل صراحةً بهذه البشارة (الإصحاح 14: 39، والإصحاح 17: 112). وهنا يورد ملخص ما كتبه عبد الأحد داود من بحث لغوي حول هذا الموضوع: يقول إنجيل لوقا إنه عندما ولد المسيح ظهر جمهوراً من الجنود السماوية للرعاة السوريين وأخذ هؤلاء يترنمون بالنشيد التالي: الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة (لوقا 2: 14)، وهذه هي الترجمة العربية، أما ترجمة The Bible Society فهي: الحمد لله في الأعالي، على الأرض سلامة، وفي الناس حُسن الرضا. ويعلق السيد عبد الأحد داود مشيراً إلى أن هؤلاء الأملاك لم يتكلموا باللغة العربية، فلو تكلموا ما كان فهمها السوريون، ولا بدّ، إذًا، من أنّ النشيد كان بالسريانية، والكلمتان الأصليتان هما: إيريني وأيدوكيا، الأولى معناها الإسلام والثانية أفعال التفضيل من الحمد، وبهذا يكون المعنى العام: الحمد لله في الأعالي أوشك أن يجيء الإسلام للأرض يقدمه للناس أحمد، ويضيف: ولو كان المقصود سلام بمعنى Peace لاستعملت كلمة شليم السريانية أو شالوم العبرية.

وهنا يؤكد د. شلبي والشيخ أبو زهرة أن المسلمين يعتقدون باختفاء إنجيل

عيسى لأنه كان قريباً من القرآن. وهو ما مهّد للتزوير في تعاليم الديانة المسيحية، فما جاء بعد المسيح مخالف للمسيحية الحقة، خاصة بعد دخول بولس عليها، وهذا ما يوضحه، كلُّ بأسلوبه، في الأبواب اللاحقة.

وتوطئةً لدراسة المسيحية في نظر المسيحيين، يُفرد د. شلبي صفحات لآراء Berry أحد المفكرين الغربيين الذي يقول: «في رأي الكنيسة أن المسيح الإله انقلب فأصبح إنساناً وعاش مع الناس، وقُتل هذا الإله بمؤامرةٍ دبرها أعداؤه، ومن ثم عاد وخرج من قبره وصعد إلى السماء، وقد حمل هذه الآلام لينقذ المؤمنين به من الخطيئة، فالذي يدرس المسيحية يجدها اقتباسات من الوثنية اليهودية والحياة الشرقية، ويجد بها عناصر أجنبية كثيرة بارزة ومحرّفة. فمن الأفكار الفلسفية الإغريقية اقتبست المسيحية (الكلمة)، وهي ترادف الإله، ومن اليهودية فكرة الأبوة بين الله والناس، ومن الحياة الشرقية الفنون والرسوم التي ازدانت بها الكنائس... بنى عيسى كلامه على الثقافات اليهودية القديمة واستطاع بفصاحته أن يجذب الناس، ولم يدّع قط أنه المسيح الذي انتظره اليهود، ولكن كثيرين من أتباعه منحوه هذا اللقب، وبعد صلبه ذاب أتباعه، وفي خلال السنوات التالية لم يعد أحد يسمع بعيسى ولا بأتباعه».

المسيحية الحالية

إن منشىء المسيحية ومدوّن قوانينها هو شاؤول الذي سُمي فيما بعد بولس والذي يؤكد كثيراً من الثقات العصريين أنه المؤسس الحقيقي للمسيحية.

كتب بولس عن نفسه (أو كتب عنه تلميذه لوقا): «أنا يهودي فريسي، كنتُ أضطهد الكنيسة بإفراط، وكنت متقدماً في الديانة اليهودية، وكنت راضياً بقتل المسيحيين، أسطو على الكنائس وأدخل البيوت وأجرّ الرجال والنساء وأسلمهم إلى السجن» (غلاطية 1: 13 - 14).

أمّا عن دخوله إلى المسيحية فيقول لوقا: «وعندما كان بولس قريباً من دمشق فبغتةً أ برق حوله نورٌ من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي

تضطهده، فقال وهو يرتعد متحيراً: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال: قم وكرّز بالمسيحية، وللوقت جعل يركز في المجامع بالمسيح إن هذا هو ابن الله» (أعمال 9: 20) ولم تكن هذه الفكرة قد عُرفت من قبل، فأصبحت نقطة التحول في الدراسات المسيحية، وكان ذلك عام 38م.

ويضيف د. شلبي: كيف تعلّم شاول المسيحية، ومن هم أساتذته؟ ثم يجيب: إن شاول أعدّ لهذا السؤال عدّته بقصة شبيهة بقصة دخوله المسيحية، فهي إما أن تقبل وإما أن ترفض، ولكنها أبداً لا تُناقش، قال شاول: «وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بشرت به إنه ليس بحسب إنسان لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا علّمته، بل بإعلان يسوع المسيح» (غلاطية 1: 11 - 12).

وهكذا أخذ شاول - بولس - الزمام في يده، فهو لم ير ولم يسمع المسيح، ولكنه قال بصلة مباشرة بينه وبين المسيح.

وانضمّ إليه أصدقاء كثر، تبادل معهم رسائل سكب فيها أفكاره، أهم أصدقائه لوقا، تلميذه الحبيب، الذي نسب إنجيله إلى بولس.

أعلن بولس ديانته التي استمدّ عناصرها من الثقافات الأجنبية، وكان ذا قوّة عقلية خارقة، أما النقاط التي ابتدعها فهي: أولاً: أن المسيحية ليست ديناً لليهود، بل هي دين عالمي. ثانياً: التثليث، وتبع ذلك ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس. ثالثاً: كون عيسى ابن الله ونزوله ليضحي بنفسه تكفيراً عن خطيئة البشر. رابعاً: قيامة عيسى من الأموات وصعوده ليجلس على يمين أبيه كما كان من قبل ليحكم ويدين البشر.

والنقطة الأولى هي نقطة التحوّل في تاريخ الديانة المسيحية، أفاض بولس في شرحها في رسائله، مؤكداً أن النعمة أعطيت له هو، وهو أصغر القديسين، ليُشَرّ بها بين الأمم. وقد عمد بولس إلى إرضاء طبقة السادة، فجعل طاعتهم ديناً كطاعة المسيح، يقول: «أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة» (أفسس 5: 6 - 7)، وهكذا لم تجد الطبقة الحاكمة في بولس ما وجدته تجاه عيسى

من حثّ على عدم شغل الوظائف وعدم الخدمة العسكرية، فقلّ اضطهاد الحكام لأتباع بولس.

ولن ننسى (يشير المؤلفان) إلى أن صراعاً قام بين بولس وأنصاره من جهة، وبين المسيحيين الحقيقيين من جهة أخرى، امتدّ قروناً بعدهم، حتى القرن الرابع حين سادت تعاليم بولس، ووُضعت لها المراجع في صورة أناجيل ورسائل.

ويتساءل المؤلفان: في رسائل بولس إلى تلاميذه يبدو أنه كان يجيب على ما كتبه أخصامه (المسيحيون) فأين هي كتاباتهم؟ أما الإجابة التي لا تحتل الظن، فهي أن ما كتبه هؤلاء، أي الحواريون، والمسيحيون الحقيقيون، ومن رفض الاعتراف بالوهمية عيسى... ضاع، ودمّر كما دُمّر إنجيل عيسى، وإذا نجا بعضه، فقد ظهر في مجمع نيقية، حيث تقرر أن يُختار الكتاب المقدس للمسيحيين كلهم ويُتلف ما عداه. وهكذا شاعت تعاليم بولس، وأصبح للكنيسة رجال دعاة، وإداريون منقطعون للعمل لها، أطلق على هؤلاء Clergy لتمييزهم عن العلمانيين غير المنقطعين للدين، وأطلق على كبير القسس في كل مدينة Bishop أو مطران، وأساقفة المدن الرئيسية Archbishop، ومن رؤساء الأساقفة ارتفع خمسة تسمّى كل منهم بلقب Patriarch، وكانوا على: أنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية والقسطنطينية وروما. وقبل القرن الحادي عشر كان كلّ من هؤلاء الأساقفة يطلق عليه لقب Pope، ثم في عهد جريجوري السابع اختصّ بهذا اللقب رئيس أساقفة روما، والذي انفرد - فيما بعد - بنفوذ كبير. وأصبحت الكنيسة تمثل الغنى والترف، وصارت مركزاً اجتماعياً وثقافياً، اجتمع في يدها جميع شؤون الأسرة، وصار رجال الكنيسة أنفسهم ممثلين لله، فقادوا أفكار العالم، وسيطرت الكنيسة على باب الله، بل مثلت منفذ الرحمة. وبهذا أبرزت خطر الحرمان الذي هو حاجز بين المحروم وبياب السماء.

ولمّا ازدادت الكنيسة قوة زادت طقوسها عدداً، ثم أنقصتها، وبقي منها: التعميد، وهو لمحو آثار الخطيئة الأولى. والعشاء الرباني بالماء أو الخمر والخبز الجاف، وقد أنيط هذا القداس بخبر إعجازي: هو تحوّل الماء

أو الخمر إلى دم عيسى، وتحول الخبز إلى عظامه، ويجري هذا القداس مرتبطاً بالأنوار والعطور والزهور. والاعتراف، ويتبعه الغفران. وحضور القسيس عقد الزواج وحضوره عند الموت.

الأنجيل

مصادر المسيحية قسمان: قسم يُعرف بالأسفار التاريخية، وهو يشمل الأنجيل الأربعة التي وصفت حياة عيسى وتحديثك عن معجزاته وعظاته ويضم هذا القسم معه أعمال الرسل، وقسم ثانٍ يشمل الرسائل الأخرى التي توضح المسيحية ومبادئها، ويُعرف بالأسفار التعليمية. ويوضح المؤلف، هنا، أن القسمين من عمل بولس وأتباعه، وليست الأسماء الموضوعية إلا أسماء مستعارة، نقلاً عن دائرة المعارف الفرنسية (ج 5، ص 117)، فبعد أن فنيت الأنجيل أو الكتابات التي تُعارض بولس، ظهرت الأنجيل الحالية، منها: «متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا»، وهذه هي الأنجيل المعترف بها من الكنيسة رسمياً، ويشير بعض المؤرخين إلى أن هذه الأنجيل لم تُعرف قبل أواخر القرن الثالث، وأولها ذكر عام 209م، إذًا، هذه الأنجيل لم تنزل على عيسى، ولم يُملها على حد، ولكنها كُتبت بعده.

1 - إنجيل متى: متى أحد تلاميذ المسيح الإثني عشر، كان جابياً للرومان، ثم اختاره المسيح تلميذاً له. وبعد صعود المسيح جال متى للتبشير بالمسيحية، ومات بالحشة عام 70م بعد أن قضى فيها 23 سنة. ومن المتفق عليه أن متى كتب إنجيله بالعبرية لأنه وجهه إلى اليهود، ولم يكن يعرف اليونانية التي وصلت فيها نسخة هذا الإنجيل الأولى، وفي الترجمة الفرنسية يشار إلى أنه كتب إنجيله عام 39 للمسيح.

2 - إنجيل مرقس: مرقس لم يكن من الحواريين الإثني عشر. أصله يهودي وهو من أوائل من أجابوا دعوة المسيح، فاختره من بين السبعين الذين نزل عليهم الروح القدس من بعد رفعه وألهموا التبشير بالمسيحية. لازم مرقس خاله برنابا، وهو من الرسل، وبولس الرسول، في رحلتها إلى أنطاكية للتبشير، ثم تركهما بعد

ذلك. قتل في مصر عام 62م، ووصلنا إنجيله باليونانية وقيل إنه كتبه عام 61 بتدبير من بطرس.

3 - إنجيل لوقا: اختلف في أصل لوقا، فقال البعض إنه طبيب ولد في أنطاكية، أو كان رومانيا نشأ في إيطاليا، إلا أن المتفق عليه أنه لازم بولس في رحلاته وأعماله. وقد كتب إنجيله إلى رجل شريف من علماء الروم يقال له تاوفيللا، كما كتب له الابركسيس الذي هو أخيار التلاميذ، وذلك بين عامي 53 و64م.

4 - إنجيل يوحنا: يقول الشيخ أبو زهرة أن إنجيل يوحنا من أخطر الأناجيل لأنه الذي يتضمن ذكراً صريحاً لألوهية المسيح. ويوحنا حواري أحبه عيسى حتى أنه استودعه والدته هو فوق الصليب. نُفي ثم عاد إلى أفسس وبقي فيها ومات شيخاً هرمًا. وقد أنكر البعض أن يكون هو كاتب إنجيله، قالت بذلك دائرة المعارف البريطانية (لم يوثق ذلك الشيخ أبو زهرة)، كما لم يثبت تاريخ تدوينه الصحيح. ويؤكد د. شلبي أن إنجيلي لوقا ويوحنا والرسائل من عمل بولس وأتباعه، ويرشح الشيخ أبو زهرة أن يكون من وضع إنجيل يوحنا أراد أن يثبت ما أراد المسيحيون أن ينسبوه إلى عيسى من غير المذكور في الأناجيل الثلاثة الأخرى التي أشارت دائماً إلى وجود إنجيل أصلي قديم.

5 - إنجيل برنابا: برنابا هو من الرسل «قبرصي باع حقله وأتى بالدرهم ووضعها عند أرجل الرسل» وقد اشتهر برنابا بالإيمان، ويُزعم أن الروح القدس اختصه هو وبولس، وقد اتفق المؤرخون أن أقدم نسخة عثر عليها من إنجيل برنابا كانت باللغة الإيطالية عام 1709، وهو من الأناجيل التي حرمت الكنيسة قراءتها، حتى قيل إن للمسلمين يداً في وضعه، لأن كاتبه كان عالماً بالأسفار القديمة كلها، ولأنه بشر بالنبي محمد صراحة، ولم يعترف بأن عيسى ابن الله أو أنه صليب.

العقيدة المسيحية

أسس العقيدة المسيحية ثلاثة: التثليث، وتجسد الإبن وظهوره بمظهر البشر

ليُصلب تكفيراً للخطيئة التي ارتكبها آدم، وأنَّ الإله قد ترك للإبن حساب الناس على خطاياهم. هذه المعتقدات الموضوعية لا تستند إلى الأناجيل برأي المؤلفين، وهذه هي التفاصيل:

1 - التثليث: يبدأ د. شلبي هذا الفصل بنص للأب بولس الياس اليسوعي (من كتابه: يسوع المسيح، ص 76 - 77) منه: «إذا أطلعنا على كُنه الله لا يسعنا إلا القول بالتثليث فكُنه الله محبة، ومن طبع المحبة أن تفيض وتنتشر، فهي إذاً تفترض شخصين على الأقل يتحابان، وتفترض كذلك وحدة تامة بينهما، وليكون الله سعيداً - ولا معنى لإله غير سعيد وإلا انتفت عنه الألوهية... كان عليه أن يهب ذاته شخصاً آخر.. ولهذا ولد الإله الإبن منذ الأزل.. وبادل الإبن أباه هذه المحبة.. وثمره المحبة المتبادلة كانت الروح القدس، هو الحب إذاً يجعل الله ثالثاً وواحداً معاً».

ويعلق د. شلبي قائلاً: هذه المقولة خرافة! إنهم يقولون بالتثليث في وحدانية، ووحدانية في تثليث، فما دوافع هذا التعقيد؟

ويضيف: إن التثليث أقدم من ألوهية المسيح عند المسيحيين، أخذوه من الثقافات المحيطة بهم، لكنهم وقعوا في مشكلة التوفيق بين الوحدانية - إذ إن دينهم وليد اليهودية القائلة بالتوحيد - والتثليث.. وهنا جدّ جدّهم لإثبات ذلك:

... البابليون أول من قالوا بالتثليث، إذ جعلوا آلهتهم مجموعات، كل مجموعة من ثلاثة، أما الوحدة في تعدّد، والتعدّد في وحدة فظهرت عند الهنود إذ كان عندهم: براهما وفشنو وسيفا، والثلاثة أوجه لواحد: براهما (الموجود)، وفشنو (الحافظ) وسيفا (المُهْلِك). واتجهت مدرسة الإسكندرية هذا الاتجاه (أوزيرس وإيزيس وحورس) هي هيئات لإله واحد.

وقد عرفت المسيحية هذا التثليث مع بولس الذي كان مطلعاً على الفلسفة الإغريقية. وقد وافقت فكرة التثليث الجماهير التي نفرت من اليهودية لتعصّبها ومن الوثنية لبدائيتها. ويتساءل د. شلبي: ما وظيفة الثالث، وكيف يُفهم، وكيف يكون الإبن غير مخلوق وهو ليس أحدث من الأب؟... وهنا يجيب: «لقد حاولت

جهدي أن أصل إلى جواب بالقراءة والحوار مع المسيحيين، ولكنني أقرر أنني لم أفهم شيئاً من إجاباتهم، بل لقد صرّح كثيرون منهم أن هذه مسائل اعتقاد لا مسائل فهم» (ص 134).

ثم يفصل الشيخ أبو زهرة ود. شلبي مفهومهما للتثليث، مستعرضين آراء المفكرين المسيحيين المؤيدين والمشككين. ويصلان إلى نتيجة مؤداها أن هذا الاعتقاد لا يخضع للعقل، والذين رفضوا ذلك قبل برنابا، وآريوس المصري (336م)، وسرفيتوس الإسباني (1553م). . . حاربهم الكنيسة.

ولأن هذا المعتقد تكرر اتفاقاً في مجامع كنسية، كان لا بد من استعراض ذلك تفصيلاً:

ألوهية المسيح ومجمع نيقية

بدأ اعتبار عيسى إلهاً في مؤتمر نيقية عام 325م، حين اجتمع الأساقفة ليضعوا حدّاً لاختلافاتهم، وكان عدد المجتمعين 2048 أسقفاً، بينهم عالم مصري اسمه آريوس كان ينادي «بأن الله واحد والإبن مخلوق مصنوع وقد كان الأب إذ لم يكن الإبن»، أما علماء مدرسة الإسكندرية فنادوا بالتثليث وانضمت إليهم كنيسة روما، فاختلف المجتمعون، حينئذ قرّر الإمبراطور تبني رأي كاهن روما، فأصدر أمره بإخراج الرؤساء الروحيين الموحّدين، وانضم إليهم نفر كثير، وقتل آريوس مع بعض مؤيديه. ثم اجتمع الباقون وعددهم 318 وأصدروا الوثيقة - القرار:

«نؤمن بالله الواحد، الأب، مالك كل شيء، وصانع ما يرى وما لا يرى، وبالإبن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلاق كلها، الذي ولد من أبيه مثل العوالم كلها وليس بمصنوع. . . صلب أيام بيلاطوس ودفن، ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه».

يقول الشيخ أبو زهرة: إن بطاركة الإسكندرية كانوا يمثلون فلسفة الإسكندرية أكثر من تمثيلهم لمسيحية المسيح، والقوة هي التي أيدت كنيسة الإسكندرية وعسفت بأعدائها، فضّعفوا بمرور الزمن وكثرة التضحيات.

أما الروح القدس فلم يتخذ به قرار في اجتماع نيقية، بل نُصّ في ذلك الاجتماع على «ترك الحرية للناس في الاختلاف على الروح القدس».

ألوهية الروح القدس: الروح القدس هو الذي حلّ على العذراء لدى البشارة، وعلى المسيح في العماد، وعلى الرسل بعد صعود المسيح إلى السماء. وبعد مجمع نيقية كان هناك رأيان: أحدهما قال بالتثليث وبأن المسيطر على العالم قوى ثلاث: المكوّن الأول، والعقل (الإبن) والنفس العامة (الروح القدس). والاتجاه الثاني يتزعمه أسقف القسطنطينية الذي أعلن أن الروح القدس ليس بإله، ولكنه مخلوق ومصنوع، كما أعلن الأسقف أوسابيوس إن للثالث أقنوماً واحداً وذاتاً واحدة.

ولبّت هذا الخلاف دُعي لمجمع جديد في القسطنطينية عام 381 حضره 150 أسقفًا، وفيه أعلن حرمان الأسقفين السابقين وأسقط كلّ منهما من رتبته، ثم قُدمت دراسات اعتمدت نتائجها دون مناقشة، وكأن القرار كان معداً قبل الاجتماع، أما نص القرار فهو: «الإيمان بروح القدس الرب المُحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والإبن مسجود له، وممجّد»، «وثبتوا، في هذا المجمع، أن الأب والإبن والروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاث خواص، وحدية في تثليث، وتثليث في وحدية، كيان واحد، في ثلاثة أقانيم، إله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة».

ومرة أخرى فُرض هذا القرار فرضاً على المسيحيين. وعُذّب من خالفه، وحُرم من الوظائف وصودرت آراؤه.

ولم يكتفِ رجال الكنيسة بهذا الثالث، بل تراهم كأنهم تصوّروا منافسة بين الله وبين المسيح، فلم يقنعوا بأن يكون الروح القدس منبثقاً من الأب، فَعَقَدُوا مجمعاً آخر في طليطلة عام 589م وقرّروا فيه أن الروح القدس منبثق من الإبن أيضاً.

ولم تقبل الكنيسة اليونانية بذلك، وهي ما زالت - حتى اليوم - على خلاف مع الكنائس الأخرى بسبب من هذه العبارة.

ثم تابعت المجامع المقدسة حول ألوهية المسيح وكونه ذا طبيعتين: إلهية

وإنسانية، أم طبيعة واحدة فقط... حتى كان المجمع الثامن الذي أسس لانفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية.

أما المجمع الثاني عشر لعام 1215 فقد تقرر فيه نهائياً نظام التأديب الكنسي، ومنه أن الكنيسة البابوية في روما تمتلك حق الغفران وتمنحه لمن تشاء. والمجمع العشرون المنعقد في روما عام 1869 أثبت العصمة للبابا.

2 - صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر

يعتقد المسيحيون أن من صفات الله العدل والرحمة، ويمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التي ارتكبتها أبوهم وطُرد بها من الجنة، ويمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر، وللجمع بين العدل والرحمة وسَطَ ابنه ووحيدَه وقَبْلَ أَنْ يظهر في شكل إنسان وأن يعيش كالإنسان ثم يُصلب ليكفّر عن خطيئة البشر.

ومن استعراض آراء مفكرين غربيين، نستنتج توافق الجميع على أن بولس هو مبتدع هذه الفكرة ومروجها في إنجيل لوقا.

تُصوّر الأناجيلُ عملية التعذيب التي مرّ بها عيسى قبل صلبه تصويراً لا ذعاً كثيراً يستدعي التساؤل: أيّ عدل وأيّ رحمة في تعذيب غير مذنب وصلبه؟ ما هي صورة الله (إله الرحمة) عند المسيحيين؟ من ذا الذي قيّد الله وألزمه العدل والرحمة والتوفيق بينهما؟ ثم كيف، وبأيّ شرع يلتزم الأحفاد (ذرية آدم) بخطيئة الأجداد (آدم)، مع أن الإنجيل ينص على أنه لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كلّ إنسان بخطيئته يُقتل وإذا كان صلب المسيح عملاً تمثيلاً، فلماذا يكره المسيحيون اليهود ويعدّونهم آثمين؟ ثم أليست هناك طريقة أخرى للتكفير عن خطيئة البشرية؟...

وقد نستغرب إذا علمنا أن قصة صلب المسيح وردت غير متشابهة في الأناجيل الأربعة، فكيف دَوّن أصحاب هذه الأناجيل أهمّ حدث في حياة المسيح بشكل مختلف. وقد عدّد عبد الوهاب النجار 34 وجهاً من أوجه التضادّ بين هذه النصوص. ولا شك أن هذا التضاد يُسقط قيمة الاستدلال

بهذه النصوص، وبالتالي يُسقط قيمة الفكرة (د. شلبي، ص 164 عن قصص الأنبياء، لعبد الوهاب النجار، ص 435 - 448).

3 - المسيح يحاسب الناس

وهو الأساس الثالث من أسس العقيدة المسيحية، ويرى المسيحيون أن الأب أعطى سلطان الحساب لابنه، ويعتقدون أنه بعد أن ارتفع إلى السماء جلس بجوار الأب استعداداً لاستقبال الناس يوم الحشر ليدينهم على ما فعلوا (الإصحاح الخامس)، وفي رسائل بولس إلى أهل أفسس ورومية...

ويضيف المؤلفان: إن هذه العقيدة مبنية على ألوهية المسيح، وهو أساس باطل، فإذا ثبت أنه بشر لم يكن له الحق أن يحاسب أو يدين.

ويزيد الشيخ أبو زهرة في باب المعتقدات المسيحية فكرة تقديس الصليب، وإن كانت - كما يقول - لا ترقى إلى أن تكون بمرتبة المعتقدات السابقة، فحمل الصليب وتقديسه اقتفاءً لخطوات المسيح في إنكار الذات والرضى بالفداء. والفكرة مأخوذة من العادة الرومانية التي تُلزم كل محكوم عليه بالصلب أن يحمل صليبه كل يوم...

المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية

هذا الباب ينفرد به كتاب د. شلبي الذي عُني بالمقارنة أكثر من كتاب الشيخ أبو زهرة، وفي هذا الباب يعيد د. شلبي كل معتقد مسيحي إلى ما يراه مصدراً له في الديانات القديمة:

ويقدم لذلك بتسمية آلهة الإغريق والرومان والفرس والسوريين... ويُثبت أن هذه الآلهة كلها ولدت في الفترة نفسها التي يُنسب إلى المسيح أنه ولد فيها، وكل هؤلاء ولدوا في كهف أو حجرة تحت الأرض، وعاشوا حياة فيها عناء من أجل الجنس البشري، ونُعت كل منهم بالمخلص أو بالمنتقذ أو بالوسيط، وكلهم قُهرُوا بقوى الظلام والشرّ، ثم ألقوا في المدافن أو النيران، ثم هبّوا من مدافنهم بعد الموت وصعدوا إلى عالم السماء... ولكل من هذه الآلهة خلفاء ورسل ومعابد.

ويتابع د. شلبي فيتحدث بالتفصيل عن ديانة مترا الفارسية التي عاشت قبل الميلاد بستة قرون، ونزحت إلى روما سنة 70 ق.م. وانتشرت في إيطاليا حتى وصلت إلى إنكلترا، ويفصل في دراسته إلهها مترا: كان وسيطاً بين الله والبشر، مولده في كهف في الخامس والعشرين من ديسمبر (كانون الأول)، وكان له إثنا عشر حوارياً، وقد مات ليخلص البشر من خطاياهم، ودفن وعاد للحياة وصعد إلى السماء أمام تلاميذه وهم راكعون يبتهلون له. كان يُدعى المخلص، وكان من أوصافه أنه كالحمل الوديع، وكان أتباعه يعمّدون بإسمه. وفي ذكراه كل عام يقدّم عشاء مقدس (للتفصيل يراجع Robertson: Pagan Christs, p. 338).

وإذا كانت ديانة مترا أمّدت المسيحية بهذه التعاليم فإنّ ديانة بعل، إله البابليين، كانت معيّناً للمسيحيين في قصة محاكمة عيسى وصلبه. والقصة البابلية اكتُشفت في لوحتين تعودان إلى القرن التاسع قبل الميلاد، سُجّل عليهما محاكمة بعل ونهايته، وحين أخذ اليهود إلى سجن بابل أيام بختنصر رأوا هذه التمثيلية التي كانت تعرض مطلع كل ربيع ثم استعادوها حين عادوا إلى ديارهم، فانعكست في آدابهم وحياتهم العامة.

ثم يضع د. شلبي في عمودين متقابلين حكاية صلب المسيح وحكاية صلب بعل، فإذا الأحداث والمواصفات هي ذاتها تماماً.

أما مقارنة بوذا بعيسى، في حياته ومماته، فتظهر متطابقة جداً. وقد درس ذلك علماء كثيرون ذكرهم د. شلبي (ص 180)، واستغرقت المقارنة أربع صفحات فيها كل التفاصيل.

الكنيسة في خدمة السياسة

وهذا الباب ينفرّد بذكره أيضاً د. شلبي في كتابه، فيبيّن فيه أن الدول الاستعمارية أوحّت للكنائس بمبادئ جديدة لتضعها ضمن المعتقدات المسيحية للدول النامية وحدها، كي تحافظ في ذلك على ما يمكن أن تحافظ عليه من سلطة الغرب على هذه الدول. ومن ذلك مباركة الكنيسة للتصنيع في الغرب ومعارضة في الشرق، لأن العامل في زعمها - في الشرق فقط - يعتبر نفسه إلهاً إذا عمد إلى التصنيع،

وهذا يتنافى مع الإيمان واعتبار الإنسان مخلوقاً. كما أن الكنيسة ترى أن الثروة التي ستعود على البلاد من جزاء التصنيع ستجلب الشرّ على المسيحيين في البلاد النامية، لأن ارتفاع مستوى المعيشة سيلحقه كثير من الخطايا والشرور.

هذه «الأفكار» وردت في مؤتمر نيودلهي عام 1960 استخفافاً بالمواطنة وفهم شعوب البلاد النامية للدين.

كذلك هناك ما قام به مجلس الكنائس العالمي في مؤتمر سالونيك باليونان عام 1959 حين قرر «أن السياسة هي المجال الذي يتحتّم فيه على الكنيسة في دول إفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية أن تعمل فيه، وطالب الكنيسة في هذه البلاد أن تراقب خطط التنمية فتميز فيها بين ما يتفق وإرادة الله وبين عمل الشيطان، وعليها أن تكون رقية تُعلن للقوم أين يقف الله ومن أين يطلّ إبليس العدو». وفي هذا المؤتمر نفسه، قرر المجلس تبني فصل الدين عن الدولة. ويتساءل المؤلف: هل هناك نوعان من المسيحية، أحدهما يطبق في بلاد الغرب وآخر (يفبرك) بواسطة (الخبراء) ليُعمل به في الدول النامية؟!

ثم يتابع المؤلفان، في ملاحق كل من الكتابين، ذكر أسماء الحواريين والرسل وأعمال المجامع وقراراتها، والتفصيل في مناقشة المفكرين المسيحيين، وذكر مَنْ أيد منهم التشكيك بالمعتقدات المسيحية... كما يعقد كل منهما فصلاً للمذاهب المسيحية وكنائسها في العالم.

وفي الخلاصة، فإن كتابي الشيخ أبو زهرة وشلبي هما كتابا جدلٍ وليسا كتابي معلومات. فمصادرهما عن المسيحية خارج القرآن ضعيفة، وغالباً من جانب خصوم للمسيحية الرسمية. والعجيب أن الرجلين يصران من جهة على أن الإسلام استمراّر للمسيحية كما تؤكد مصادره، ويسرفان من ناحية ثانية في إثبات تحريفها؛ بحيث يستحيل اللقاء والحوار أو يصبح شديد الصعوبة. والواقع أن دوافع تأليفهما مدرسية بعد أن صارت الأديان أو مقارنة الأديان مادة في المناهج الجامعية في الوطن العربي. فهما موجّهان للطلاب المسلمين، لتزويدهم بِعُدّة جدالية تحفظ عليهم ثقتهم بدينهم من جهة، وتعرض عليهم صورةً مجتزأة عن الأديان الأخرى ومنها المسيحية من جهة ثانية.